ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي

اشتغال العرب بالأدب المقارن

أو ما يدعوه الفرنجة « littérature comparée »

في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر

لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد

[تابع المنشور في العدد الماضي]

— تلخيص وتحليل —

للأستاذ خليل هنداوي

ومنه قول المتنبي :

عدوك مذموم بكل لسان ... ولو كان من أعدائك القمران
لو الفلك الدوار أبغضتَ سيرَه ... لعوّقه شيء عن الدوران

وهذا كثير موجود في أشعار العرب ، ولا نجد في الكتاب العزيز منه شيئاً ، إذ كان يتنزل من هذا الجنس من القول ، أعني الشعر ، منزلة الكلام السوفسطائي من البرهان ؛ ولكن قد يوجد للمطبوع من الشعراء منه شيء محمود كقول المتنبي :

وأنى اهتدى هذا الرسولُ بأرضه
وما سكنت مذ سرت فيها القساطل
ومن أي ماء كان يسقى جياده ؟
ولم تصف من مزج الدماء المناهل

وقوله :

لبسن الوشي لا متجملات ... ولكن كي يصن به الجمالا
وضفّرن الغدائر لا لحسن ... ولكن خفن في الشعر الضلالا

وههنا موضع آخر مشهور من مواضع المحاكاة يستعمله العرب وهو اقامة الجمادات مقام الناطقين في مخاطبتهم ومراجعتهم إذا كانت فيها أحوال تدل على النطق ، كقول الشاعر :

وأجهشت للتوباد لما رأيته ... وكبر للرحمن حين رآني
فقلت له : أين الذين عهدتهم ... حواليك في أمن وخفض زمان
فقال: مضوا واستودعوني بلادهم ... ومن ذا الذي يبقى على الحدثان

ومن هذا الباب مخاطبتهم الديار والأطلال ومحاورتها لهم كقول ذي الرمة :

وأسقيه حتى كاد مما أبثه ... تكلمني أحجاره وملاعبه

وقول عنترة

أعياك رسم الدار لم يتكلم ... حتى تكلم كالأصم الأعجم
يا دار عبلة بالجواء تكلمي ... وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

وذكر أرسطو أن هوميروس كان يعتمد هذا النوع كثيرا واجادة القصص الشعري والبلوغ به الى غاية التمام أن يكون متى بلغ الشاعر من وصف الشيء أو القضية الواقعة التي يصفها مبلغاً يرى السامعين له كأنه محسوس ومنظور اليه وهو كثير في شعر الفحول ، لكن إنما يوجد هذا النحو من التخييل للعرب إما في أفعال غير عفيفة ، وإما فيما القصد منه مطابقة التخييل فقط . مثال الأول قول امرىء القيس :

سموت اليها بعد ما نام أهلها
سمو حباب الماء حالاً على حال
فقالت : سباك الله إنك فاضحي
ألست ترى السمار والناس أحوالي
فقلت : يمين الله أبرح قاعدا
ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

ومثال الثاني قول ذي الرمة يصف النار :

وسقطٍ كعين الديك عاودت صحبتي
أباها ، وهيأنا لموقعها وكرا
فقلت لها ارفعها اليك وأحيها
بروحك واقتته لها قتة قدرا
وظاهر لها من يابس الشخت واستعن
عليها الصبا واجعل يديك لها سترا

والمتنبي أفضل من يوجد له هذا الصنف من التخييل ، ولذلك يحكى عنه أنه كان لا يريد أن يصف الوقائع التي لم يشهدها مع سيف الدولة ، على أن تعديد كل مواضع المحاكاة مما يطول ، وإنما أشار أرسطو بذلك الى كثرتها واختلاف الأمم فيها

نقد المعاظلة

أراد بهذا الباب أن يبدي المعايب التي يجب على الأديب أن يجتنبها لأنها من عيوب الانشاء . واستشهد على ذلك بهوميروس فقد كان يعمل صدراً يسيراً ثم يتخلص الى ما يريد مما كانه من

غير أن يأتى فى ذلك بشىء لم يُعتد لكن ما قد اعتيد ، فان غير المُعتاد مُنكر . ولعله دل بذلك على مظهر من مظاهر البساطة التى يزداد بها الكلام روعة وتسلسلاً . فكلما كان الكلام بسيطا ممتنعاً كان أذهب فى البلاغة وأبعد فى الروعة . ولعل ابن رشد أراد أن يجد متنفساً فى الشعراء الذين يحيدون عن غرضهم الموصوف الى أغراض مختلفة ليست من الموضوع فى شىء كالنسيب والغزل المتكلف البالى ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . ثم يرى أن يكون التركيب على المشهور عندهم سهلاً عند النطق ، وهو عند العرب الفصاحة . وأما أنواع المحاكاة غير المقبولة فعدَّ أشهرها :

منها أن يحاكى بغير ممكن بل ممتنع ، وهو الذهاب فى اغراب الصورة حتى لا تطابق الواقع وغير الواقع ، كقول ابن المعتز يصف القمر فى تنقصه :

أنظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وإن هذا لمتنع

ومنها تحريف المحاكاة عن موضعها كما يعرض للمصور أن يزيد فى الصورة عضواً ليس فيها ، أو يصوره فى غير مكانه ؛ وقريب منه قول بعض المحدثين يصف الفرس :

وعلى أذنيه أذن ثالث من سنان السمهرى الأزرق

ومنها محاكاة الناطقين بأشياء غير ناطقة ، وذلك أن الصدق فى هذه المحاكاة يكون قليلاً والكذب كثيراً ، إلا أن يشبه من الناطق صفة مشتركة للناطق وغير الناطق كتشبيه العرب النساء بالظباء وبقر الوحش

ومنها أن يشبه الشىء بشبيه ضده أو بضد نفسه ، كقول العرب « سقيمة الجفون » فى الحسنة الناضة النظر ، فان هذا ضد الصفة الحسنة ، وإنما آنس بذلك العادة

ومنها أن يأتى بالأسماء التى تدل على المتضادين . ومنها أن يترك الشاعر المحاكاة الشعرية ، وينتقل إلى الاقناع والأقوال التصديقية ، وبخاصة متى كان القول هجيناً قليل الاقناع كقول امرئ القيس يعتذر عن جبنه :

وما جبنت خيلى ولكن تذكرت مرابطها من بَرْبعيص وميسرا

وقد يحسن هذا الصنف إذا كان حسن الاقناع أو صادقا كقول الآخر :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا فرسى بأشقر مزبد

وعلمت أنى إن أقاتل واحدا أُقتل ، ولا ينكى عدوى مشهدى

فصددت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مفسد

فهذا القول إنما حسن لصدقه ، لأن التغيير الذى فيه يسير ، ولذلك قال القائل : يا معشر العرب لقد حسنتم كل شىء حتى الفرار

وأما أمثلة المحاكاة المبنية على التوبيخات فهى غير موجودة عندنا ، إذ كان شعراؤنا لم تتميز لهم هذه الأشياء ولا شعروا بها . ولا أدرى ما يريد ابن رشد بهذه التوبيخات ، فان كانت الاعتذاريات فللأدب العربى طائفة منها قد تكون قليلة ، ولكنها رائعة لطيفة المأخذ . وكفى باعتذاريات النابغة دليلاً ؛ ومن يجحد ما للمتنبى والبحترى من لطيف الاعتذار والتوبيخ والعتاب ؟

ثم ينتقل ابن رشد الى بحث صناعة الأشعار القصصية ، ويريد بها حوادث التاريخ فيقول : إن محاكاة هذا النوع من الوجود قليل فى لسان العرب (وكأنه يعترف ضمنا بوجود أنواع منه) وهوميروس هو أبرز من عندهم . ومن جيد ما فى هذا المعنى للعرب قول الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعد آل محرق ؟ تركوا منازلهم ، وبعد أياد

أرض الخورنق والسديروبارق والقصر ذى الشرفات من سنداد

نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجىء من أطواد

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

فأرى النعيم وكل ما يُلهى به يوماً يصير الى بلًى ونفاد

وقد تدل هذه الأبيات الخالية من الروح القصصية على أن ابن رشد لم يتفهم جيداً ما أراد أرسطو بصناعة الأشعار القصصية . ذلك لأنه لم يتأت له أن يقف على هذه الصناعة ويعرف مناهجها . ولأن تكون هذه الأبيات الى باب العير أحق من الحاقها بباب القصص . وما أكثر ما تتردد هذه النغمة فى شعر العرب ! وهى نغمة شاذة عن الألحان القصصية ، لأن الشاعر فيها يستلهم عاطفته ؛ والقصة لا يغنى فيها استلهام العاطفة وحدها . وكأن ابن رشد أراد أن يستنفذ حكمه كمؤرخ فاستطرد وقال : وقد أثنى أرسطو على هوميروس . وكل ذلك خاص بهم وغير موجود مثاله عندنا . إما لأن ذلك الذى ذكر غير مشترك للأكثر من الأمم ، وإما لأنه عرض للعرب فى هذه الأشياء أمر خارج عن الطبع وهو أبين !

(البقية فى العدد القادم)

خليل الهنداوى